سوف تسعى هذه المقالة إلى طرح بعض الأسئلة والإشارة إلى بعض الثغرات الواسعة في كل الجدل القائم حول "الردع"، هذا الجدل الذي بدا كأنما بدأ بمنشورات عشوائية تحول إلى مقياس أساسي في التحليل وهو مقياس مضلل ومحبط ولا يخلو من الخباثة. حجتي ببساطة هي أن هذا المقياس باطل بالصورة الشائعة، الهدف الثاني للمقالة هو توضيح الخطورة الفكرية من الطعن في المقاومة. لذا وجب توضيح بطلان المقياس وصد السهام التنظيرية التي تستهدف المقاومة اللبنانية. ومن باب تقبل النقد وترك المجال للنقاش سأحاول طرح الأسئلة المناسبة والتي يجب أن يجيبها أي محلل أو فرد يؤكد على ضرورة استخدام هذا المقياس إذا أصرَّ عليه.

للوصول إلى تلك الغاية من المقالة علي أن أذكّر بشيئين من سلسلة الطواف حتى لا تكون السلسلة بأكملها متطلباً سابقاً لقراءة هذه المقالة. أولاً لتوضيح الفكرة التي أسعى لانتقادها يجب أن استخدم مثالاً مباشراً جدير بالمحاججة، وهذا كي لا أتصرف مثل المفكرين الذين يحاربون ظلال الأفكار أو الأفكار القشية، ونظراً لطبيعة مجتمعاتنا المهووسة بالسمعة علي أن أوضّح ثانياً أن الانتقاد ليس لشخص الكاتب وهو خير الدين الجابري وإنما للفكرة المطروحة في المقالة المعنية. أقول هذا ليس للمجاملة لكنها الحقيقة، فأنا لا يهمني التقرب أو التنافر من أي محلل أو كاتب مقالات أو مقدم في عالم بعد الطوفان، فقد أثبتت الحرب قطعاً أننا نعيش في صحراء فكرية ومن الأجدر بنا أن نشك بقادة الرأي لا أن نحسن الظن بهم. ومع ذلك سأوضح في آخر المقالة مسلكاً لحسن الظن لأن المنطق الشكوكي يجب أن يرجّح الأفكار كلها والمنطق العام يجب أن يتعامل مع الأفكار بموضوعية، وبالموضوعية سأبدأ.

آخر ملاحظة هي أن انتقادي لهذه المقالة خصوصاً لا أعني أنها تحصر كل الأفكار المنتشرة لكنها مثال جيد عليها، لذلك سأدرج أفكاراً ثانية من خارج المقالة كي أحيط بنقاش "الردع"، علاوة على ذلك سوف أقرُّ باحتمالية وجود أفكار خارج المقالة -تلك وهذه- تصب في نفس النتيجة ولمّا أتطرق لها، فإن كان هذا واقعاً أرحّب بتعليقات لتنبيهي على وجودها لمراجعة ما كتبت هنا إذا اقتضى الأمر.

من الذي حرّك قطعة الردع الخاصة بي؟

على عكس المقالات والمقابلات التي تعاطيت معها في سلسلة الطواف، هذه المقالة توضح الثغرة من عنوانها "كيف سيتعامل حزب الله مع تآكل سياسة "الردع" و"احتواء التصعيد"؟"، عناوين المقالات لا تكون دائماً من يد الكاتب، لكن يجب عليها دائماً أن ترتبط ارتباطاً وثيقاً -مباشراً كان أم ضمنياً- مع محتوى المقالة. هذا المحتوى يبدأ بافتراض نجده في الفقرة الأولى عن أن الحزب سعى لسياسة من "الردع المتبادل"، من البداية هناك خلل قد يفوت البعض لأن هذا النقاش كله مصطنع ويبدأ بتجاهل بعض الحقائق. منها أن الحزب ق\ حقق بالأصل ردعاً مطلقاً للتدخل العسكري الصهيوني في لبنان، وهذا الردع لم يكن ردعاً يشبه الردع الذي سعت دولٌ مثل مصر والأردن للوصول إليه، أي أن تمنع من توغل الكيان في أراضيها وبالمقابل تقف بالحياد مسبقاً -وبالانحياز شبه الكامل حالياً- إزاء ما يحصل في فلسطين. بعد تحرير أرضه وأسراه، لم يلجأ الحزب إلى معاهدة سلام مع الكيان، بل أصرَّ على خط المقاومة، هذا الإصرار لم يتزعزع في أي لحظة لكن الحرب في سوريا وجهّت أنظار الحزب للحليف السوري. وهذا القرار يعني أن الحرب لم تتوقف بين الحزب والكيان، وبالتالي لا يوجد مستوى ردع يمكن الإشارة إليه دون النظر إلى الصورة الكبرى التي تشمل نية متبادلة بالتدمير الكامل، وهذه النية تعني المد والجزر في كل المعارك، والكر والفر حتى في المعركة نفسها.

فإذا كانت المسألة واضحة لماذا نجد حوار "الردع" قد انتشر بهذه الطريقة؟ في آخر المقالة سأوضح المنطلقات لهذا الانتقاد، أهمها يرتبط بالحرب السورية ولا داعي للتظاهر بأن ما يحصل الآن من نقد للحزب هو حالة غريبة استثنائية، لكن الحديث عن الثورة أو الحرب الأهلية في سوريا يشبه السير في حقل ألغام، ومع أن الأطراف تملك سرديات تبرر تحركاتها كلياً أو جزئياً، إلا أن المقالة ليست في محضر تقييم هذه السرديات وإنما التعامل بموضوعية مع الطرف المعني في مقالة خير وهو حزب الله. في سردية الثوار السوريين كان الإصرار على أن ما يعرف بمحور المقاومة ليس مهتماً بمقاومة الكيان الصهيوني بل بمصالحه الخاصة (دون التوضيح لماذا يظن المؤمن بهذه السردية كيف لتلك المصالح أن تتعارض عند طرف المحور وقد دخل الكيان في الحرب ضده وقصف دمشق واغتال وتعاون مع الثوار). على أي حال في حرب الطوفان تحطم هذا الزعم بأكمله لكن هذا التحطم لم يحصل لأن المحور قد بدّل مساره، أي أن المحور لم يمر أثناء الربيع العربي بمرحلة تواد ومحبة مع الكيان الصهيوني أو الولايات المتحدة التي تدخلت هي الأخرى واغتالت قاسم سليماني وقصفت في سوريا ودعمت بعض فصائل الثوار.

بمعنى آخر، هناك حقيقة بارزة تبدو وكأنها متغيرة فقط في سردية الثوار، وكأن الحرب السورية انتقلت من عالم الحقائق إلى عالم المحاكاة على الإنترنت. بالطبع لا أعني بهذا أن المحور لا يملك سردية مقابلة، أو أن الأفراد الذين يميلون له خارج عالم المحاكاة، إلا أن المحاكاة مهما اقتربت من الواقع فهي لن تنطبق تماماً عليه، ويمكن الإفاضة بل تجب الإفاضة بأثر الإنترنت على فهمنا للأحداث السياسية، وخصوصاً عندما يكون المتكلمون أمثالي أنا وخير من سكان دولة لم تدخل مباشرة في أيٍ من الحروب المذكورة. لكن ذلك الحديث يطول وهنا سآخذ القدر الكافي لموضوعنا دون إنكار حجمه الهائل وضرورة التفصيل به لاحقاً، وهي مهمة شاقة حاولت البدء فيها وما زلت بانتظار جدلية كي أصقلها.

على أي حال، لفهم كيف تنتقل الحروب إلى محاكاة يمكننا الاستعانة بمفهوم أشهره جان بودريار، بدلاً من أخذ الطريق الطويلة بالحديث عن كتابه الثقيل "المحاكاة والسيميولاكرا" وبما أن الارتباط المباشر بين الحرب القائمة وما يذهب إليه الكاتب واضح وضوحاً يسمح لعدة مقالات مثل هذه وهذه يكفي أن أشير إليها، كما يمكن للقارئ أن يتابع هذا المقطع لتلخيص المفاهيم قبل أن أوظفها. قبل البدء يجب أن أوضح أن هذه المفاهيم معقدة وربما لن أتمكن من استخدامه استخداماً صحيحاً، لكن لو كان هناك قارئ من العيار الثقيل الذي تمكن من فهم هذه المفاهيم وثم وجد خطباً في هذه المقالة أرجو أن يتواصل معي. في هذه المقالة سوف استخدم سيميولاكرا لأشير إلى الدرجة الثالثة منها ومن انقطاعها الصورة عن الواقع، أو ما يعرف hyperreality، لكنني لبعض الدواعي سأكتفي بسيميولاكرا. الداعي الأساسي هو أن الصورة عند المعظم عن الثورة السورية قد ابتعدت ابتعاداً كافياً عن الواقع حتى لم تعد هناك نقاشات تتحدث عن الواقع المباشر، المدافعون عن الثورة توقفوا من زمن سحيق عن الإشارة إلى الفصائل التي يرغبون بأن تصل إلى الحكم بل لم تعد هناك حاجة للتظاهر بأن الهدف هو حكم بديل، هناك صورة ثابتة للثورة والنقاشات تنهار في لحظة الابتعاد عن تلك الصورة، أو بالأحرى تهتم النقاشات بالحفاظ على تلك الصورة أكثر من اهتمامها بالحفاظ على واقع الثورة.

حجتي ببساطة هي أن الحرب السورية مع الوقت انتقلت من الواقع إلى محاكاة إلى السيميولاكرا، إلى انقطاع كامل عن الواقع، وأن معظم الأفراد خارجها بالإضافة إلى العديد داخلها أيضاً لم يعد من السهل عليهم التمييز عند الإشارة لها بحقيقة ما يشار إليه حقاً، إلى الحرب الفعلية أم إلى المحاكاة أم إلى السيميولاكرا. وبما أن المحاكاة للحرب السورية انفلقت سردياً إلى سرديتين عظيمتين يمكن القول بأن البعد بين المحاكايتين عن الواقع ليس متساوياً بالضرورة خصوصاً لأن الأحداث اليوم تثبّت سردية أكثر من ضرّتها حتى لو لم تنطبق هي على الواقع، والأدق هو أن نقول أن هناك محاكاة واحدة بالفعل، وفيها سرديتان، وأن الواقع بعيد عن المحاكاة وعن السرديتين أيضاً.

سأبدأ الحجة مع فرض يمكن التشكيك به قليلاً لكنني سأحاول إثبات الارتباط بعد أن أوضّح العلة فيه، الفرض هو أن المنتقدين لتحركات الحزب هم بالمجمل قد فتحوا جدالاً فرعياً دون أن يبتّوا في أمر الجدال الأصلي، أي أنهم باتوا يخلطون بين السيميولاكرا السورية وبين الحرب على غزة، وبهذا جلبوا التناقض بين السرديتين وأسقطوها على هذه الحرب.

السردية الثورية والتي احتفل بعض أبنائها بأكبر هجمة إرهابية على لبنان تنص على أن الكيان الصهيوني قد وضع جبهات الإسناد في وضعية زوغزوان، النقلتان السيئتان هما إما التصعيد لحرب كاملة مما يعني تدخل الدول الغربية بشكل رسمي ومباشر ونظراً لعدم رجوح ميزان القوة لمصلحة المحور فإن التصعيد المطلق قد يؤدي إلى خسارة فادحة، ربما لن تكون مطلقة لكنها ستكون مكلفة بما فيه الكفاية كي تخرج عن نطاق الاحتمالات المعقولة. النقلة الثانية هي الإبقاء على وتيرة الإسناد وما يعنيه من تصعيد لا يعتمد على قسوة ضربات الكيان وإنما على حسابات خاصة بالمحور، وهذه النقلة سيئة لأن الثمن أصبح باهظاً جداً وفق المقالة التي نتحدث عنها، فالحزب يتعرض لاغتيالات لمراتب عليا بالإضافة إلى هجمات إرهابية صهيونية فظيعة تهدد سلامة المدنيين الذي يحاول المحور الحرص على دمائهم.أو كما يصفها الجابري "يحقق فيه [الكيان] بعض "الإنجازات التكتيكية" بتوجيه ضربات موجعة وغير مسبوقة للحزب."

المؤمن بهذه الأفضلية للكيان أمامه عدة فرضيات، الفرضية الموجودة في المقالة هي أن وتيرة الضربات المتبادلة أو ما وصفه "الاستمرار بسياسة احتواء الضربات الإسرائيلية وعدم الرد بشكل متناسب عليها" يقود "بشكل لا لبس فيه إلى تآكل "الردع" وتجرؤ "إسرائيل" على توجيه اللكمات المتتالية والضربات الأكثر إيلاماً مما تخيله حزب الله أو حليفته إيران -التي لا تزال تحتفظ بردها على عدوان الاحتلال المتكرر". أولاً القطع بتآكل الردع هو ما يجب إثباته عبر إثبات طبيعة الردع التي تتآكل، وهي الثغرة الأساسية في معظم هذه الأقاويل. لو كان الحزب يسعى إلى "ردع" الكيان من توجيه ضربات إلى لبنان فكان من الممكن أن ينأى بنفسه عن حرب الطوفان كما فعلت الأردن ومصر، لكن الحزب لم يفعل ذلك وهو ربما أكبر الخبراء في المنطقة بمحاربة الكيان بالإضافة إلى المقاومة الفلسطينية، وهذه المقاومة بخبرتها التي يستغلها البعض للطعن في المحور تحالفت مع الحزب. سنتحدث عن مساوئ المقارنات والطعن بعد قليل، أما هنا لنركز على أن هدف الحزب لم يكن بالأصل "ردع" الكيان عن الهجوم على لبنان، كما أن الحزب لم يراكم من أجل هذا الردع واعتبره الغاية المطلقة، لأنه لو فعل كما وضحنا لكان من الطبيعي أن يتفق مع الكيان على الفصل بين حرية لبنان وحرية فلسطين.

عندما تواجه أي عدو مهما كان فأنت ستخوض حرباً قد تختلف ضوابطها وعليك أن تتحرك وفق المعطيات العسكرية. ما لا تجده في أي فرضية مطالبة بالتصعيد هو الحل الاستراتيجي السليم، بل تجد الزوغزوان في الطرح أصلاً، ففي المقالة نفسها لا يفوت الكاتب أن الحزب "حاول بكل ما يستطيع تجنيب لبنان حرب واسعة أرادها الإسرائيليون بقوة ولا يريدها اللبنانيون بكافة أطيافهم, حيث لا تحتمل البلاد المرهقة اقتصادياً وأمنياً أي شكل من أشكال الحروب"، لنرى ما هو الحل وفقاً للجابري، في الفقرة الأخيرة نجد التالي "فإن الحزب اليوم مطالب باستعادة صورة القوة والردع التي يراهن الاحتلال على تآكلها".

يمكن فهم هذه الجملة بطريقتين على الأقل، ربما تعني أن المطلوب هو التصعيد لحرب شاملة وهي تلك النقلة السيئة التي يحاول الحزب تفاديها، أي أنه يطالب الحزب بتجاهل المعطيات التي منعته من الحرب الشاملة وكأن المعطيات صارت ثانوية دون أن يوضّح ذلك. هل توحد اللبنانيون بكل أطيافهم وهل تحسنت الأوضاع الاقتصادية والأمنية بشكل ملائم كي نعتبر أن النقلة إلى الحرب نقلة سليمة؟ وربما تعني جملته أن الحزب يجب أن يستمر على سياسته الحالية التي وصفها بأنها "احتواء التصعيد"، فإذا كان الأمر كذلك، ولو افترضنا أن

الحزب بالفعل يسعى للحفاظ على هذه السياسة وهذا ما يمكن أن نستنتجه من المقالة نوعاً ما، ما هو الداعي من التذكير بالنقلة الثانية؟ الحزب سوف يسعى وفق هذا الفرض لتعديل الوتيرة والموازنة بين ضرب الكيان دون الدخول في الحرب الشاملة، والآن لنفترض أن الحزب استمر في هذه الوتيرة، من هو القاضي بنجاح ذلك؟

بمعنى آخر، ما هي الضربة التي يطالب بها الجابري وأمثاله؟ بما أن حرب الطوفان طالت للأسف، صارت بعض النقاط تتكرر بما فيه الكفاية لرسم أنماطاً يمكننا الاعتماد عليها في توقع بعض الأحداث والآراء، وأحد الأنماط الواضحة تمتد من أنماط سابقة تأمل بعضنا بسقوطها، وهي أن البعض يطعنون في قرارات الحزب مهما كانت، ولا أعني بذلك أن الجابري منهم فعلى الرغم من متابعته على تويتر ومتابعة بعض حلقات بودكاسته، لا أستطيع القطع برأيه ولا أرغب بتقويله ما لم يقل. لكن بالمجمل آخرون من أصحاب هذا الرأي سواء كانوا محللين يظهرون على الجزيرة أو حسابات معرفة أو وهمية على مواقع التواصل، قد أبدوا نمطاً من الانتقادات والمطالب التي لا تشبع أو تكف عن النقد سوى عندما ترى الدماء اللبنانية، وحتى حينها تجبل تعازيها بنبرة "ألم نخبركم!"، وكأن الإرهاب الصهيوني مبررٌ إذا تحرك الحزب بطريقة ما دون الأخرى. هذه نقطة ثانية يمكن أن نستبق الأفكار وندرجها بعد قليل في قسم خطورة الطعن في المقاومة اللبنانية على هذا الأساس، لأن تبرير أي تحرك للكيان بلوم المقاومة لا يمكن وضعه على الطاولة دون إعادة النظر بكل الأقاويل التي تبرر إجرام الكيان في غزة بسبب الطوفان.

فرضية الحرب الشاملة وكيف يتنكر القائل لموقعه الحقيقي فيها

لنركز على الفرضيات، لسببٍ ما هناك فرضية واحدة قد انتشرت انتشاراً لا يبدو طبيعياً لأنه لا يقوم على قياس مادي، الفرضية هي أن المحور صار يدفع الثمن كما لو أنه في حرب كاملة دون أن يؤذي الكيان كما لو أن الحرب كذلك، مما يعطي الأفضلية للكيان، هذا تقريباً ما جاء في مقالة الجابري لكنه لم يصرّح به لذا ردي هنا ليس على المقالة مباشرة. هذه الفرضية تقوم على افتراض غير مثبت وهو أن الحرب المطلقة سوف تخفف من وطأة الإبادة في غزة وأن المحور سوف يؤذي الكيان دون أن تتدخل القوى العسكرية الغربية في الحرب أو دون أن يتلقى ما يكفي من الدعم كي يفتك بلبنان أيضاً. قد تصح هذه الفرضية في حالة واحدة وهي أن استعداد الغرب للدخول في حرب إقليمية قد تشعل حرباً عالمية فقط من أجل الكيان هو أشبه بخدعة البوكر "Bluff". لا يمكن البت في تلك الاحتمالية حتى لو كانت هناك شواهد عليها، نعم هو مستعد لدعم الكيان دعماً مطلقاً لكنه لا يقدر على الدخول المباشر بالحرب لأن الدخول يمثل تصعيداً على سلم آخر وهو السلم العالمي، وهو تصعيد تتفاداه الدول الغربية وروسيا على الرغم من ارتفاع درجة المواجهة في أوكرانيا، وذلك لأن الردع النووي المتبادل يضمن عدم تصادم هذه القوى مباشرة.

لكن كل التنظير لهذا النوع من الردع جاء من الحرب الباردة ويصعب معرفة ما إن انطبق في عصرنا. بمعنى آخر، الفرضية المنطقية المطالبة للمحور بالتصعيد يجب أن تسحب كرت الحرب العالمية، وهذا يتطلب نوعاً من التفاهم مع روسيا التي أثبتت أنها مستعدة للدخول في الحرب لحماية مصالحها ولا يعقل أن تتراجع هي الأخرى عن عض الأصابع الآن .الكرت ببساطة هو كرت المصالح الدولية الواضحة لا العلاقة الطفيلية الغربية للكيان، أي أن المحور يجب أن يهدد بحرب وبنك أهداف يحتوي على أثمن الموارد والتحالفات بالمنطقة، للدقة أعني دول الخليج وما فيها. قد يظن أحدهم أن هذه مبالغة لكن السؤال لمن يظن ذلك هو ما تعريفه لحرب شاملة إن لم تشمل كل دول المنطقة؟ وهذا هو أحد الأسئلة التي يجب أن يجيبها أي منظر يدعو المحور للتصعيد دون أن يتحدث عن كل المعطيات. في لحظة كتابة هذه المقالة لقد مَرَّت أشهر على اعتراض الأردن لصواريخ إيرانية متجهة نحو الكيان، كيف يمكن قراءة هذا الاصطفاف في سياق حرب شاملة؟ هل ستكمل الأردن في الحياد المعلن أم أنها ستنحاز وإن انحازت فهل ما زلنا في زمنٍ نجيب بكل ثقة بأن الأردن لن تحارب كتفاً إلى كتفٍ مع الحليف الأمريكي وما يندرج تحته -أو فوقه- من طفيليات صهيونية؟

لنفترض صحة الحياد، ما زال هذا الحياد أعوراً يتعامى عن الطموح الصهيوني وعن المخاوف المشروعة للشعب من مجاورة كيان سفاح لا يأبه بالقوانين الدولية مما يعني عدم وجود ضمان لاحترام معاهدات السلام، وهو كيان إرهابي لا يتوانى عن تعريض حياة آلاف المدنيين للخطر مما يعني أن الشعب الأردني لن ينجو من احتمالية هجمات إرهابية صهيونية، هذه الهجمات قد تكون من الكيان الصهيوني وتُنسب إلى المحور. ومع الضخ الإعلامي الرسمي الأردني الذي يمكن تتبع ملامحه على ألسن الحسابات الذبابية وبعض الساسة الكارهين لفكرة المقاومة المسلحة أو حماس وحتى عند بعض المؤثرين، كلهم يتجاهلون إبادة واضحة وتاريخ عداء واضح مع الكيان ليخوفونا من خطر إيران التي لم تحارب الأردن أصلاً. هنا قد يفهم القارئ لماذا يصعب علينا فصل ما يحصل في هذه الحرب عن السيميولاكرا السورية، لأن المعظم في الأردن يهربون من الواقع والتاريخ المباشر الذي لا يحتوي على أي صدام بين الأردن وإيران، أو حتى بين الأردن وحزب الله، ويلجأون إلى السيميولاكرا السورية لمعاداة هذين الطرفين. أما الحكومة السورية والأردنية فهما بالفعل ليستا أفضل الأصدقاء، لكن إسقاط علاقة الأردن مع سوريا على كل أطراف المحور تعتريه بعض الشوائب ولا مساحة للحديث فيها هنا وتكفي الإشارة إلى أن العلاقات تعود إلى شيء من الاستقرار وهو مع استقراره متوتر ومع توتره أقل توتراً من علاقة الحكومة الأردنية بإيران وحزب الله مع أنهما لم يعرضا الأردن للمخاطر التي تعرضها الحكومة السورية، وأقول هذا لأشير إلى غرابة الضخ الأردني ضدهما.

المغزى هو أن الضخ الإعلامي الرسمي يميل إلى الوقوف ضد المحور في حال نشوب حربٍ شاملة، ولكن الرأي في الشارع يقف مع المقاومة الفلسطينية، لذا قد يبدو لوهلة أنه سيرفض هذا الانحياز مع الكيان رفضاً قاطعاً، إلا أن محاكاة الحرب السورية هي ليست حكراً على السردية الحكومية، بل يمكن القول بأن الحكومة الأردنية أصبحت على علاقة أفضل مع الحكومة السورية من علاقة الشارع الأردني مع الحكومة السورية، وهذا أيضاً يصب في نفس السيميولاكرا وينبع منها. كما أن هناك شواهد أخرى على أن أنصار الثورة يتعلقون بالصورة أكثر من اكتراثهم بالواقع ومنها فكرة "أيام الأسد باتت معدودة" والتي تجاهلت أن عداد الأيام يفوق العقد اليوم وأن كل شيء يشير إلى أنه شخصياً ليس في مأزق حتى لو حملت الحكومة من بعده مأزقاً ما.

وبما أننا نتحدث عن حرب وجودية مع الكيان، يتضح لأي قارئ دقيق الخطورةَ في الخلط بين السيميولاكرا السورية والواقع الخام بعد الطوفان، وأزعم أن ما يحصل الآن هو تمدد السيميولاكرا السورية والتصارع مع وقائع الحرب في غزة، وأن حرب غزة هي الأخرى قد طالت بما فيه الكفاية إلى أن خرجت عن نطاق الواقع بالنسبة "للمتفرجين" وأخذت الخطوة الأولى في طريق المحاكاة وصار البعض يتعلق بالصورة أكثر من تعلقهم بالواقع، كما أزعم أن الفصل بين المقاومة الفلسطينية واللبنانية هو ذروة الصدام بين المحاكاة لحرب غزة والسيميولاكرا السورية و/أو السرديتين السوريتين (الثوار x المحور).

هذه التناقضات الحادة والتي لم تتجاوزها الشعوب تعني أن المحور لا يستطيع خوض الحرب وهو مطمئن كلياً لأنها ستقتصر على مواجهة بينه وبين الكيان ومن وراءه، كيف له أن يأمن جانب بعض الشعوب حتى تلك التي تزعم أنها مع المقاومة الفلسطينية، وكتابها يكتبون أن تآكل الردع يؤدي إلى "فقدان الثقة بالحزب على الأقل بين قواعده الشعبية". هذا الزعم غريب قليلاً، قاعدة الحزب في جنوب لبنان تثق به ثقة قل نظيرها، ولا يجوز الاحتجاج ببعض المقاطع أو التعليقات العابرة للإشارة لتزعزعها، بل لم أجد شخصياً مخاوفاً من حسابات محسوبة على الحزب، معظمها انجرّت إلى وضع دفاعي ضد أمثال الجابري الذين لم ينفكوا عن الطعن في الحزب منذ بدء الحرب.

من المحزن أن أهل جنوب لبنان الذين يستحقون احتراماً مفرطاً من الجميع أن يتعرضوا إلى هجمة إعلامية متلونة ترفعهم يوماً وتطعنهم أياماً، لكن لنحاول أن نبحث عن الخير عسى أن يكون فيما نكره. قد نجده في غرابة جمعه لكلمة القاعدة، ربما يشير الجابري إلى نفسه أو القاعدة الجديدة للحزب وهي القاعدة التي بدأت تستيقظ من السيميولاكرا السورية بالتدريج. أي أنها قاعدة خارج لبنان، سواء من المستيقظين المتثاقلين في أسرّتهم أو القلة التي كانت دائماً في صف الحزب ويصعب عليها التعبير عن هذا الموقف "وراء خطوط الأعداء". لكن إذا كان الأمر كذلك، على كل هؤلاء أن يثبتوا أنفسهم للحزب لا العكس، أي أن المناصر للحزب سواء ناصره اليوم أو منذ 2000 أو 1985 لو كان خارج لبنان هو من يجب أن يوضّح مدى مناصرته له، وهذا يفوق بعض التعازي الخجولة والتمنن بتخطي الثورة السورية وكأن الحزب يخجل من وقفته مع حلفائه ويتطلب مسامحة على تلك الوقفة.

باختصار، أصحاب هذه الفرضية ينسون موقعهم في الواقع وفي المعادلة، ويحرضون على حرب دون توضيح مكانتهم فيها، مما يعني أن الفرضية إذا صدرت منهم فهي تنقد نفسها. أصحاب هذه الفرضية، أي فرضية أن الحرب الشاملة مطلوبة أو أن التصعيد الذي قد يفضي إليها يستحق المراهنة، لو كانوا في الدول التي لا يستطيع المحور ضمان موقفها، عليهم أن يساعدوا في توضيح هذا الموقف المناصر. إما بنوع من تفويض لحرب شاملة وضمان عدم الانضمام إلى الكيان فيها أو على أقل تقدير الالتزام بالحياد المتكامل. وهذا بدوره ليس سهلاً أبداً لكن لا داعي للإفاضة في هذا المسلك، دعنا نتوقف على هذا الحد من الافتراضات بإشارة إلى العداوة المصرّح بها من بعض الشعوب للمحور أو العداوة المبطنة التي تطبع بشكل ناعم مع الكيان فهي لا ترى عيباً في الوقوف معه إذا ما واجه المحور أو على الحياد والذي يعني تقبلاً أخلاقياً لكل جرائمه عبر مساواتها بالجرائم التي ينسبها أصحاب هذا الرأي للمحور، لاحظ مثلاً أن الجابري يعتمد بتحليله على إعلام العدو ولا يخجل من بناء تحليله على مقالة من هآرتز، وهذه الاستعانة خصوصاً بهذه الصورة ليست استعانة موضوعية، ولو فعل أحدهم شيئاً مشابهاً بأخذ آراء الصهاينة التي تقول أن المقاومة الفلسطينية على وشك أن تنهزم وعلى المقاومة أن تغيّر من تكتيكاتها يكون من السهل علينا الاشتباه بهذا التسلسل المنطقي، لكن لسببٍ ما لا يرى من يقف مع المقاومة الفلسطينية مانعاً من التصرف كما يتصرف الواقفون ضد المقاومة الفلسطينية، ويستخدم نفس الحجج والأدلة والإسقاطات كما يفعل أولئك. نعم هذه نقطة ثالثة تندرج تحت بند خطورة الطعن في المقاومة اللبنانية.

فرضية الحرب الشاملة عندما تصدر من الفلسطيني تاريخياً

للتعليق سريعاً على رد محتمل يقول بأن مطلب التصعيد لحرب شاملة يمكن أخذه بشكل موضوعي أو قد يصدر من الفلسطيني الذي يخوض المعركة مباشرة وبذل ما بذل منها وأعلن عن اصطفافه المطلق في حال نشوبها، إذ لا يعقل أن نتوقع بوقوف المقاوم الفلسطيني مع الكيان ضد الحزب. كما أن نفس الحجج السابقة لو صدرت من الفلسطيني فهذا الطلب قد يبدو مشروعاً نظراً لحجم الألم، لكن البت فيه في اللحظة الحالية ودون تصريحٍ مباشر من قادة المقاومة الفلسطينية يمكن أخذه كإشارة على تصور آخر لا يمت للواقع بصلة واضحة لكنه مفهوم فقط في فرع للسيميولاكرا السورية. التصور الآخر هو أن المقاومة الفلسطينية والتي يمكن أن نعتبرها قد انتمت رسمياً

للمحور في هذه الحرب ليست على تفاهم مع قيادات المحور، الطلب بالتصعيد من الجالسين يعني أنها هي إما لم تطالب بهذه الحرب الشاملة أو أنها لا تتفهم القرار بعدم الخوض فيها حتى الآن وتحلم بالتصعيد وتنظّر له كما يفعلون وأن المحور يخونها أو يخذلها، ولكن على الرغم من الخيانة والخذلان المنسوب للمحور ما زالت القيادات الفلسطينية لسببٍ ما تتمسك بالمحور. هذا التصور البائس لا دلالات واقعية عليه ولا يمكن الإسهاب في أخذه على محمل الجدية دون أن تتوالى الطعنات في هذه القيادات، وللعلم هذا ليس غريباً على أصحاب السيميولاكرا السورية، فقد سبق وأن سلّوا الخناجر للطعن بحماس بعد تقاربها مع الحكومة السورية وحتى اليوم عندما يتكبرون على المحور ويصفون وقوف المقاومة الفلسطينية معه كأنها وقفة غريق بقشة كما فعل الشنقيطي أو غير ذلك من تبريرات مهينة لطرفي التحالف (المقاومة الفلسطينية وكل قوى المحور). لا غرابة بأن هؤلاء السفهاء يظنون أنهم أذكى من قيادات الحركات المسلحة الفلسطينية، وأنهم سيتمادون في سفاهتهم ويصورون القيادة كأنها تبكي وتستنتجد بالمحور وأن المحور يخون ويخذل.

في جعبة بعض الفلسطينيين المتحاملين على الحزب فرضية ثانية تنص على أن كل ما تعرض له الحزب من ضربات مؤذية ما كانت لتحصل لو أنه دخل في حربٍ شاملة. للأسف يبدو أن صياغتي صياغة قشية لكنني رأيت البعض يحاول المحاججة بهذا الاتجاه، كما رأيت حجة مصغّرة تدعو المقاوم اللبناني بأن يخوض حرباً صفريةً كما يفعل المقاوم الفلسطيني. في هاتين الحجتين قلة أدب وعقل لكنني لن أتحامل كثيراً على أصحابها لأنهم أصحاب المنطلق الثالث والرابع الذي سأوضحهما لاحقاً في المقالة.

أولاً لا يعقل أن نزعم بأن هذا الكيان الذي ارتكب كل هذه الفظائع سيتردد في ارتكاب مثيلاتها في لبنان، هنا قد تخطينا نطاق الفرضيات ودخلنا عالم الأحلام، كل محاولة لتصوير الحزب كأنه "متردد" من الدخول في حرب شاملة لأنه خائف ساقطة لأن الخوف هو سمة المسالمين والقاعدين، أما الحزب فهو اليوم بعد فقدانه أقدم قادته في سبيل هذه الحرب لم يعد لديه حاجة لإثبات جديته في هذه الحرب. بالطبع هو لم يكن بحاجة لأن يثبت شيئاً لمن يدري تاريخه ولأي شخص ليس مغموراً في السيميولاكرا السورية. أما بالنسبة للحجة المصغرة التي يزاود فيها الفلسطيني على اللبناني فأنا أخجل بالنيابة عن القائلين بها، ولا أدري كيف لفلسطيني وهو يرى الفظاعات المرتكبة بحق شعبه يقول لغيره بأن المقاومة الصفرية تعني تقليل الضحايا.

لهذا ولعشرات الأسباب أرى أن الخلل في منطق الكثيرين من المطالبين بالتصعيد لا ينطلق فقط من الحرب في سوريا بل أيضاً من دخول الحرب في غزة إلى مرحلة المحاكاة التي تبتعد قليلاً عن الواقع، على الفلسطيني أن يدرك أن الكثيرين في العالم العربي لا مشكلة لديهم بالخنوع والاستسلام، وهناك أيضاً من هو مستعد للتضحية في سبيل رفع الظلم، وأن أولئك المستعدين للتضحية لا يحتاجون إلى مثل هذه المحاججات، فهم قد خاضوا حروباً فظيعة، لكن كيف للفلسطيني أن يدرك ذلك وهو يفصل بين حربه وبين كل الحروب التي قاتلت فيها أطراف المحور بالناب والمخلب خصوماً حاولوا تحويل كل الحروب تلك إلى حروبٍ صفرية، وكيف له أن يدرك ذلك وهو الآخر عرضة لنفس أدوات الإعلام التي اختلست الشرعية من حربه وعلى ألسنة أبناء قومه.

باختصار من المراهقة الفكرية تذكير المحور بتبعات وجود الكيان أو نجاحه في اجتثاث المقاومة المسلحة الفلسطينية، ومن العادي توقع مثل هذه الأفكار على ألسنة من لم يجتز النصف الأول من عشرينيات عمره فهو كان أحد المتفرجين لأعتى هجمة إعلامية على المحور. لكن اللوم كل اللوم على من هم أكبر عمراً ومعرفةً وعلى الرغم من ذلك سخروا أقلامهم في تلك الحرب.

فرضية الحرب الشاملة وبوابتها البرّية

أخيراً لماذا يعرض أصحاب هذه الفرضيات والمطالبين بالتصعيد المسألة وكأن المحور هو القادر على إشعال الحرب الشاملة على الكيان وعليه أن يباشر بها، الحروب إذا تخطت حدا معيناً تحتاج إلى اجتياح برّي، وهذا الاجتياح للكيان لو جاء من المحور فهو يتطلب اجتياحاً من الحدود السورية واللبنانية، ويفترض وجود ما يكفي من القوى البرية التي ستتدخل على الأرض. بالطبع هذا ممكن في مرحلةٍ ما، وقد يكون ممكناً حتى في هذه الحرب، لكن احتمالية شيء كهذا تعتمد بالدرجة الأولى على قدرات المحور. البعض إما من الحرقة أو عن جهالة يشير إلى الحرب السورية ويتساءل لماذا لا يدخل المحور كما لو أنها سوريا. هذه الحجج الطفولية لم تنضج كفاية للتفريق بين أنواع الحروب وبين علاقة الأطراف المعنية في الحربين التي يقرنها القارئ ببعضها.

هذا القسم يعود بنا إلى القسم تنكر المواطنين في الأردن والمصريين لموقعهم، كيف لمن يجلس في دولة سترفض أي عبور بري من أراضيها وتحاكم محاولات تهريب الأسلحة الفردية للضفة وكأنها محاولات لتهريب الأسلحة لإيذاء الأردنيين مع أنها على العكس تماماً تسعى لإضعاف الكيان الذي يحلم بتدمير الأردن كما نعرفها والتهامها في مشروعه المختل.

عدا عن ذاك التنكر الذي يمتد عبر كل عروق المطالبات بالتصعيد، سؤال الدخول البري هو سؤال في صندوق أسود لا يمكن الحديث عنه دون معرفة بالقدرات والتقديرات للمحور. لكن يكفينا الإشارة إلى أن أي رأي يطالب بالتصعيد عليه أن يوضح موقفه من الدخول البري، فإذا كان يدعو لذلك عليه أن يوضّح استراتيجيته البرية. وإن لم يكن فما الذي يطلبه فعلاً؟ المزيد من الصواريخ؟ صواريخ بحجمٍ أكبر؟ وإذا كان الأمر كذلك هل يمكن أن يقدم لنا مقياساً نستطيع اختبار المحور به؟ أم أنها تحليلات بأثر رجعي تقول لنا بعد سقوط

الصوارخ عن جدواها، فإذا كانت كذلك لماذا لا تعترف بأنها تحلل ما حصل وهو شيء ضروري، وضروري الاعتراف الضمني بأن المحلل وظيفته هي ليست في إسداء النصائح العسكرية لأن الخيط الفاصل بين النصيحة والطعن بات رمادياً في هذا السياق.

عودة إلى لغة الدم والتراب

الحقيقة التي لا تتطلب تكبراً على المقاومة الفلسطينية أو منة على المقاومة اللبنانية والتي تشير إليها كل الحقائق خارج المحاكاة وكل الفرضيات المذكورة والتي لا تعطي الكيان الأفضلية المتوهمة دون أن تتنكر لحجم الألم وقسوة الضربات الإرهابية هي أن المحور لا يلعب على الرقعة التي ترسمها المحاكاة المذكورة، أي أن المحور لا يرى الأمور بالمنظور العام وإنما بمنظوره الذي يوضّح معالمه الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله، وهو أن الأهداف القائمة هي الأولوية بغض النظر عما يطلبه المستمعون. الهدف الأساسي فور دخول المعركة هو إسناد المقاومة الفلسطينية وضمان عدم سقوطها، وقد يشير البعض إلى حجم الدمار في غزة ويتساءل لماذا لا يتم التصعيد لوقف الإبادة كلها لكن هذا السؤال ليس محصوراً على الحزب أو حتى على المحور، واجب وقف الإبادة هو واجب جماعي، وأي شخص أو طرف أو دولة لم تلقِ ثقلها ولم تقدم التضحيات لوقف الإبادة لا يحق لها أن ترمي وزرها الأخلاقي على المحور، خصوصاً الشعب الأردني والمصري. إذا كان الشخص صادقاً بضرورة وقف الإبادة يجب أن تتسخر كلماته وأفعاله في ذلك الاتجاه، أما الطعن في قرار المقاومة تحت أزيز الرصاص من الفلسطيني نفسه فهو بأحسن الأحوال سمة الجبناء وبأسوأ الأحوال خيانة رسمية، إذا كان طلب التصعيد يأتي بمنطق حرق كل شيء في محاولة أخيرة فهذا الخيار على وجه الخصوص متاح للجميع، حتى الفرد يمكنه أن يصعّد بنفسه.

أما إذا تظاهر البعض بأنهم يمارسون النقد الذاتي أو أنهم ليسوا أتباعاً ولهم الحق بالانتقاد، ففي سياق الحرب المصيرية أليس من الأولى أن يتجه النقد الذاتي إلى الذوات فعلاً؟ لماذا ينقد محللون من الأردن أو مصر أو حتى قطر (وحتى لو كانوا من أصول فلسطينية) المقاومة الفلسطينية المحاصرة بدلاً من أن ينقدوا أنفسهم؟ ولماذا يطالبون بالتصعيد من المحور وهم أنفسهم لا يجرؤون حتى على التصعيد بكلماتهم لإنقاذ جلودهم وإخراج زملائهم من السجون؟ فإذا سحب أحدهم كرت عدم التبعية فالأولى أن يثبت عدم تبعيته لحكومته المباشرة. قدرة الكثيرين على القفز فوق هذه النقطة ينبع ببساطة من قدرة الإنترنت على تصدير الثورية والبسالة، وصب الجهود في المحاكاة بدلاً من الواقع، وأقول هذا دون أي إساءة للأغلبية، هذه الحقيقة التكنولوجية بحاجة إلى تيقظٍ وتذكير مستمر.

أخيراً يقول البعض رداً على هذا أن المحور إن لم يكن قادراً على تحرير ملحمي لفلسطين يجب أن يتوقف عن إطلاق الشعارات، هذا القول لا يمكن أخذه بجدية من أي شخص يسعى لتحرير فلسطين، لماذا يحاول أي ساعٍ للتحرير رفض آخر مجموعة تضحي من أجل دعم المقاومة الفلسطينية؟ لكنه متناسق لو قيل ممن هزموا نفسياً وتخلّوا كلياً عن فكرة التحرير، أو من أولئك الذين يسعون لتحريرها بطرق أثبتت هذه الحرب وما سبقها من توسع استيطاني بطلانها مثل الطريق الدبلوماسي، أو أولئك الذين يضعون شروطاً غيبية مبهمه يمكن تلخيصها بانتظار غاندالف مسلم. على أي حال، بما أن الحزب قد حدد الهدف الأول ولم يصعّد لحرب شاملة فهذا يعني أن الهدف ما زال قيد التحقيق، أي أن المقاومة الفلسطينية على الرغم من حالتها الحرجة ما زالت قادرة على تضميد جراحها. أما الهدف الثاني وهو الهدف المعلن مؤخراً والذي يرتبط به إرهاب الكيان المركز في لبنان، فهو منع المستوطنين من الذهاب إلى مستوطناتهم في الشمال.

بوضوح وصراحة يمكننا فهم سياسة الحزب بالسماع للسيد بدلاً من تجاهله ورسم مقياس غريب يتحدث عن "الردع"، وكذلك يمكن فهم الهدف الثاني بأنه هو الهدف التصعيدي المرجو، أي أن فهم سياسة الحزب لا تقاس بحجم الصاروخ وقوته وسرعته وإنما بصموده على الثغر إلى أن يتحقق الهدف المعلن، وازدياد الأهداف هي التصعيد من منظور المقاوم الذي لا يخضع إلى توقعات الخيال العلمي. المطالبة بحرب تحرير أو الانتقاص من الحزب لأنه لا يخوضها هي افتراء خارجي، لم يزعم الحزب بأن هذه الحرب هي الحرب الأخيرة، وبما أنها ليست الأخيرة فإن أي تقدم للكيان هو مرحلي أيضاً، ومن يحاول بث الرعب وتصوير الضربات القاسية كأنها ستنهي الحزب، أو من يصرّح بأحلامه ويحدثنا عن انتهاء الحزب، هؤلاء أولى بتهمة الخذلان أو الخيانة. لأنهم بدلاً من إسناد غزة عبر إسناد من يسندها يحولون اصطفافهم ويقفون مع الكيان ولو لبرهة، هذه البرهة كفيلة بأن تحذرنا منهم، ولا أعني الأشخاص مع أن هذا معقول أيضاً، لكنها أفكار قد يلتقطها الكثير عن حسن نية، وقد يبثها البعض أيضاً عن حسن نية لكن إحسان الظن بهم يحتاج إلى درجة من الرهبانية والبراءة لافتراضه.

كل ما سبق يقودنا إلى النقطة الأهم في نظري والتي سأوضحها في القسم التالي، تمهيداً لذلك لنستخدم السؤال المفتاحي عن مدى انطباق الطعنات الموجهة إلى المقاومة اللبنانية على المقاومة الفلسطينية، قبل الطوفان لم يكن الجيش الصهيوني يسرح في غزة ويأخذ الصور ويرتكب جرائمه على الأرض، بمنطق هؤلاء الطاعنين لقد كان "مردوعاً"، أما الآن ألا يمكننا اقتباس الجابري وإلصاقه على حالة غزة، فهو يقول واصفاً رهان الاحتلال "على "تآكل" كل ما بناه الحزب وراكمه منذ تحرير جنوب لبنان عام 2000 وحرب 2006 مثل فقدان الثقة بالحزب على الأقل بين قواعده الشعبية, وكذلك اختراق مؤسساته وأجهزته والوصول بسهولة لقياداته وبث الشك والفوضى داخل صفوفه المدنية والعسكرية، وفي مقدراته وسلاسل توريد، و"تحطيم" صورته كقوة عسكرية كانت دوماً قادرة على إرهاب "إسرائيل"

وجعلها تحسب لتحركات الحزب ألف حساب". حسناً ألا يمكن القول بأن الاجتياح البري في غزة هو "تآكل" لكل ما بنته حماس وراكمته منذ تحرير غزة؟ وألا يمكن أن نستعين بالكثير من الأصوات الغزاوية التي انقلبت على حماس؟ وهكذا إلى آخر الاقتباس.

المزاودات والمقارنات المسيئة للمقاومة اللبنانية بتمجيد المقاومة الفلسطينية هي حركات مشينة أخلاقياً وأقوال فتنوية لا تستفيد المقاومة الفلسطينية منها بتاتاً، لكنها تصدر من أشخاص يأخذون بما يحلو لهم من تصريحات وأفعال المقاومة الفلسطينية ويتجاهلون الباقي. لذلك في القسم التالي سأوضح شناعة هذه المقارنات، وفي القسم الأخير سأوضح أننا لسنا أمام نقاش أحادي البعد ولا يمكن أخذه على محمل الجد بمستواه الظاهر.

أي طعنة في صدر المقاومة اللبنانية هي طعنة في ظهر المقاومة الفلسطينية

كي تتم معالجة سؤال الردع موضوعياً لا بد من مخاطبة الفلسطيني الذي نالت منه هذه الفكرة وأخذ يرددها، بالإضافة إلى العروج على فكرة ثانية قاتلة مرتبطة بها. وفي سبيل الدقة أكثر فأكثر فأنا أتحدث إلى الفلسطيني القريب من القضية والذي ما زال يؤمن بها وبضرورة التحرير وأن المقاومة المسلحة جدوى مستمرة. وهذا الكلام لا ينطبق على الشعب بأكمله، وقد أشرت إلى مفهومين للهوية الفلسطينية في الجزء الثاني من هذه السلسلة، وفق تلك المفاهيم كلامي هنا متوجه للمفهوم الثاني أي أنه يشمل الفلسطينيين في الداخل وفي الشتات طالما آمن هؤلاء بضرورة التحرير ولم ينفروا من الخيار المسلح ولا يتوجه إلى الفلسطيني في الداخل أو في الشتات لو آمن بدولة يتعايش فيها الفلسطينيون والصهاينة أو بدولة محررة تحريرها يأتي بلعق ما يكفي من الأحذية والمؤخرات بدلاً من الدعس على رؤوس كل الأصنام في العالم.

قد يظن البعض من الفلسطينيين المرتبطين بالقضية أن الحزب قد قصّر وأن عليهم -لسببٍ ما- الإشارة إلى هذا التقصير وسط الحرب، في هذا القسم الذي سأحاول اختصاره بسبب طبيعته، سأحاول توضيح خطورة الطعن في المقاومة اللبنانية من وجهة نظرٍ فلسطينية، أي أنني لن أحاجج من منطلق وحدوي أو أممي. لأن تلك المنطلقات لو آمن الفلسطيني فيها كلياً لن يتهاون بها في هذه اللحظة الحرجة، كيف له أن يحاول بث الفتنة والفراق مع الحلفاء وسط الحرب؟

أما عن الحاجة لاختصاره فهي في أنني أود التنويه إلى بعض السقطات المنطقية التي يتجه لها الطاعن في المقاومة اللبنانية، لأنها سقطات تطعن في المقاومة الفلسطينية، وعلي الاختصار ببساطة لأنني لا أرغب بالإكثار من الحديث ضد المقاومة الفلسطينية. السقطة الأولى أشرنا إليها في القسم السابق، الحديث عن خذلان أو مراهنة فاشلة أو عن أي نوع من الخيانة للمقاومة الفلسطينية تعني أن المقاومة الفلسطينية متهورة وقد أخذت مجتمعها إلى الحرب دون أن تحرص على وجود الحلفاء الموثوقين، قد يحاول البعض تبرئة المقاومة الفلسطينية من هذا برمي الوزر على المحور، لكن هذا الرمي هو ببساطة تهرب من الواقع الذي أشار إليه السيد بنفسه منذ الكلمة الأولى. وهي أن الحرب تتطلب من الجميع تحمل مسؤولياتهم، ولذلك إطالة الحرب اليوم أو فظاعتها لا يمكن أن يحمل وزرها المحور وهو الذي قدم ما قدم من تضحيات لا يمكن تجاهلها إلا عبر الحقد الأعمى أو التعامي عن كل الذين تركوا مسؤولياتهم ومنهم الفلسطينيون أنفسهم.

الأهم من ذلك فإن الإشارة إلى الفظاعات كأن الحرب انتهت وأن القضية تمت تصفيتها هو إعلان بالهزيمة، لذلك تجد معظم الطاعنين في المحور يكررون مقولات مثل "خذلناهم" و"يا وحدهم"، بالطبع لا يمكن التقليل من حجم الألم والمعاناة بأي مقياس، ولست من الذين يحاولون إلقاء كل هذه التضحية جانباً فقط لتغذية سردية ناصعة، لا بد من مواجهة هذا الألم ولكنني أدعو إلى تربية الحقد على العدو أولاً وأخيراً، فإن كان من الضرورة توزيع شطر من اللوم على غيره فالمتخاذلون هم أولئك الذين لم يضعوا أرواحهم على راحاتهم في هذه الحرب، وهذا لا ينطبق بتاتاً على أي طرفٍ من المحور، حتى لو تعجبك سرعة رد إيران أو عدم رد سوريا، فهما أيضاً ينزفان بسبب هذه الوقفة ضد الكيان. أي أنهم حتى لو حملوا شيئاً من اللوم فهم على أقل تقدير آخر أطراف على لائحة اللوم، لكن ما الفائدة من توزيع الملامة وكأن الحرب انتهت؟

إعلان انتهاء الحرب وانتصار الكيان شيء لم يفعله الكيان نفسه، لماذا يسارع الفلسطيني في هذا الإعلان؟ أيظن أنه بذلك يرضي الضحايا ويضع معاناتهم كأولوية؟ الخسارة تزيد من مرارة التضحيات بل تجعلها سدى، وعلى كل حال، وبغض النظر عن نهاية هذه الجولة، منذ متى يتحدث الفلسطيني وكأن قضيته تنتهي قبل أن ينتهي هو؟ لذلك أخص بالذكر الفلسطيني المؤمن بالتحرير، فهذا الفلسطيني لا يستطيع الحديث بهذه النبرة إلا إذا كان الإعلان بحقيقته أقرب إلى إعلان هزيمة شخصية منه إلى إعلان هزيمة القضية، أي أنه يعلن انضمامه للفلسطينيين الذين لا يؤمنون بالتحرير أو الذين يؤمنون بالتحرير الدبلوماسي، ومن الأفضل أن يدرك هذا وأن يتوقف عن الخلط بين المواقف، لأن هؤلاء لديهم حجج من طراز آخر والرد عليها يخرج عن نقاشنا هنا.

من الطعنات الحقيرة الموجهة للمقاومة اللبنانية هو لومها على الضربات التي تتلقاها، وأنها بطريقة ما استحقت الطعنات لأنها وفقاً للطاعنين "لم تردع الكيان"، ويتم الإشارة إلى الاغتيالات خصوصاً، لكن هذه الطعنة هي طعنة في المقاومة الفلسطينية. ولا يدرك البعض هذا لأن عقولهم انفلقت بين السيميولاكرا السورية والحرب الحالية سواء بواقعها أو بمحاكاتها التي تنسج بالتدريج. فهم قد أخرجوا الشهيد

إسماعيل هنية من المقاومة الفلسطينية، وأصبح واجب الثأر له واجب على المحور وليس على الفلسطيني، وهذا يمثل أول طعنة بالمقاومة الفلسطينية. الطعنة الثانية هي مباشرة في الشهيد نفسه، فهو قد أوصى بمهمته الأخيرة بضرورة التوحيد بين الساحات، وقد استشهد في مهمة لتعزيز التحالف، فهو لم يذهب للاستجمام في إيران، لذلك أي فلسطيني يستغل اغتياله في طهران كي يسيء إلى إيران فهو يسيء إلى قراره الأخير وما يمكن تسميته بوصيته العملية. أما الطعنة الثالثة فهي تتمثل بتجاهل حقيقة اغتيال قيادي فلسطيني وما يعنيه هذا وفق منطقهم على الردع الفلسطيني، أي أنهم بدراية أو دون دراية يقولون بأن اغتيال القيادي الفلسطيني هو أيضاً بسبب عدم ردع المقاومة الفلسطينية للكيان، وكأن جرائم الكيان هي جرائم عقلانية يجب أن نلوم أنفسنا عليها. أليس هذا منطق الصهاينة أنفسهم؟ ومنطق كل أولئك الرافضين للمقاومة المسلحة أيضاً؟ وكل من يلوم المقاومة الفلسطينية على تبعات الطوفان؟ هذه ليست أول عملية اغتيال لقيادي فلسطيني وخصوصاً لقيادي في حركة حماس، فإذا كان المحور "مردوع" أو أي كلمة مسيئة أخرى لأن الكيان استمر باغتيال قياداته، كيف لا يمكن أن تنطبق تلك الكلمات على المقاومة الفلسطينية وعلى حماس خصوصاً؟

هناك بضعة أفكار أخرى ترتد بدورها على المقاومة الفلسطينية لكن كما أسلفت فأنا بمحضر الدفاع عن المقاومة الفلسطينية وأرى أن الدفاع عنها يستوجب الدفاع عن المقاومة اللبنانية، وأن هذا الخيار هو منطقي وليس خياراً عاطفياً أو أيدولوجياً مع أنني لا أنكر تلك المنطلقات أيضاً. لكن بالمنطق المباشر صرت ألاحظ الأخطاء الفادحة التي يقع بها بعض الفلسطينيين في خضم "نقدهم" للمحور.

الفكرة الثانية المرتبطة بهذا الموضوع والتي يجب دفنها أيضاً، هي فكرة "تفهم" الفلسطيني لفرحة الثوار السوريين بضربات الكيان للمحور. ما زلت أخاطب الفلسطيني المؤمن بالتحرير غايةً وبالسلاح وسيلة. عليك أن تحذر من فتح باب التفهّم هذا لأنه باب إن فتحته لا تملك المفتاح لإغلاقه. بدايةً لنفصّل بمعنى "التفهّم"، قد يستخدم البعض هذه الكلمة لا لتبرير موقف الثوار الفرحين مع الصهاينة وإنما كما يقول أحدنا أنه يتفهّم لماذا تحوّل شخص ما إلى مجرم سفّاح، ولأن السبب كذا وكذا، مثلاً لأنه تعرض لصدمات أثناء طفولته أو ما شابه. هذا التفهم لا يبرر الجرائم لكنه على الأقل يخفف من فظاعتها. هناك معنى آخر يعطي بعداً أخلاقياً للأشخاص، أي أنك تقول بأنهم من موضعهم قد أخذوا موقفاً أخلاقياً، لكنك بموقعك عليك أن تأخذ موقفاً آخر. عدا عن النسبية الأخلاقية التي ينجبها هذا التفهم وأن معظم القائلين بهذا التفهم يرفضون هذه النسبية لو سألتهم مباشرة عنها، هنا تكمن الخطورة في "تفهّم" فرحة أحدهم مع العدو. وهذا التفهم هو من القيح الفكري الذي نجده عند أمثال الشنقيطي في مقالته عن الثغور، ويمكنك العودة إلى تعليقي عليها في سلسلة الطواف.

لو كانت وقفة أي طرف مع الكيان الصهيوني، خصوصاً الآن واليوم وبعد مرور سنة من الإجرام المرعب والذي لا يتوقف، لو كانت وقفة مع كيان كهذا متفهماً لأي اعتبار فقد فُتح باب تفهم أي من تصرفات الكيان وكذلك باب الاصطفاف مع الكيان. قد يظن الفلسطيني الحنون المتفهم أنه على منصة أخلاقية عندما يفتح هذا الباب لأنه يرصف بعض الحجج ليقول بأن هذه الحالة السورية خاصة واستثنائية، لكن المسألة تفوق خصوصية هذه الحالة نظرياً، لأن تفهماً لفرحة مع الكيان في مكان تعني نظرياً أن التفهم لفرحٍ مع الكيان معقول ومبرر أو على الأقل متفهّم في أي مكان. فإذا دخل هذا إلى مجال المسموح نظرياً فقد سقطت حدة الحرب الوجودية من يد الفلسطيني، فهو لا يستطيع أن يقول بالفم الملآن بعدها أن اصطفاف جهات أخرى مع الكيان مرفوض، لأنه الآن مجبور على وضع بعض الشروط على هذا التفهم، وهذه الشروط كان من الممكن الاستغناء عنها بالرفض المطلق لتبرير أي وقفة مع الكيان وعدم السماح لأي استثناء لهذا المبدأ.

مجدداً علي أن اختصر كي لا أوفّر ذخيرة لأولئك لكن للأسف مضطر لذلك في محاولتي لإغلاق الباب، إذا كان الثوار لديهم حجة أو تبريراً للوقوف مع كيان يبيد شعبنا الفلسطيني، لماذا لا تقوم حجة ثانية لوقوف الغرب مع الكيان؟ ألا يمكن تفهّم الحكومات الغربية التي أذقناها نحن -بصفتنا عرباً- شيئاً من بأسنا في ميادين مختلفة؟ وحتى كفلسطينيين، ألا تكمن نجاتنا في سحق حليفهم حتى لو لم نتعرض لهم مباشرة؟ هل من المتفهم وقوفهم معه؟ ماذا عن أمثلة أقرب، مثلاً ماذا عن السعوديين الذين يفرحون بقتل الفلسطيني لأن أنصار الله الذين قتلوا السعودي وقفوا إلى جانب الفلسطيني؟ ألا يعني هذا أن السعودي أيضاً يمكن تفهمه عندما يفرح عندما يقصف الكيان اليمن؟ وماذا عن الفينيقيين الذين ارتكبوا المجازر بحق شعبنا، هل يجب أن نتفهم موقفهم الذي يقيّد جهود الحزب تقييداً قاتلاً لنا بالمعية؟ وكذلك لماذا نستاء من الأردني الذي يفضّل السلام، ألم نتقاتل معه يوماً ما، وفي نظره ينطبق تفهم الغرب لأننا نحن نضر بحليفه ونجبره على مواجهة ما وكذلك يأتي منطق الإدلبي الفرح بخسارة عدوه في حرب أهلية ونظيرهم في الحالة الأردنية من الفصائل الفلسطينية؟ بل كيف لمن يفتح مجال التفهم هذا من أن يستاء من الفتحاوي الذي يفرح لما يحصل بغزة، ألم تسحقه المقاومة الغزاوية؟

قد يظن أحدهم أن الاصطفاف الصريح والواضح مع الكيان في إدلب استثناء لكل ما سبق لكنه أقرب لكل الأمثلة العربية المطروحة مما قد يظن للوهلة الأولى، وإذا كان الفلسطيني حنوناً عليه أن يقبل أيضاً بأن معاناته كلها هي ليست مركزية في فهمه للعالم، فالعالم مليء بالصراعات، ولذلك يجب أن نتفهم كل الأطراف. السؤال هنا، هل لدى الأخ المتفهم رأي في مآل هذا التفهم لو نجح الموقف المتفهّم؟ أي، لو تمكن الثوار في إدلب في حربهم من إسقاط المحور كلياً، وهؤلاء الفَرحين مع الكيان لو كانوا في سدة الحكم، هل يظن أن هذا ينفع قضيته؟ هل يظن أن من أوجد رخصة شرعية لتلقي العلاج عند الكيان عندما يصل إلى سدة الحكم سيصبح أكثر حرصاً على مقاومة الكيان من المحور؟ ماذا لو تمكنت الكتائب اللبنانية ونالت من حزب الله، أولئك كانوا أكثر صراحة بوقفتهم مع الكيان، هل من المتفهم لهذا الفلسطيني الحنون أن ينجحوا كلياً؟ لا داعي لمط الفكرة أكثر من هذا لكن حماقة التفهم بحاجة إلى شيء كهذا.

لهذا فصلنا في تعريف التفهم، فلو كان تفهماً كما يتفهم المرء المجرمين، حسناً على الأقل لا يقلل هذا من فظاعة الجرم أو من ضرورة العقاب للمجرمين. أما لو كانت المسألة أخلاقيةً، على الحنون أن يقرّ بنسبية أخلاقية، فإذا رفض ذلك أيضاً، عليه أن يعترف وبكل صراحة بأن القضية الفلسطينية وتحرير أرض فلسطين وإعادة الحقوق للشعب الفلسطيني كلها مسائل يمكن التخلي عنها لاعتبارات ثانية، بالطبع يمكنه أن يوضح ما هي تلك الاعتبارات لكن من الصعب أن ينكر أنها اعتبارات تصطدم مع جوهر القضية.

لكن البعض لا يربطون بين هذه الأطراف لعدة أسباب، سأذكرها في القسم التالي، وقبل أن أفعل سأذكر السبب الرئيسي وهو أن الجانب النظري لا يأتي بالحدس دائماً، هذا واجب على المنظرين لاستنباط الروابط وتقوية بعضها وقطع البعض الآخر. من الجانب النظري أيضاً يجب أن أحيط بكل الافتراضات والروابط ولهذا يجب أن أوضّح لمن تتبع منطق المقالة أو قرأ سلسلة الطواف كلها أمرين. الأمر الأول هو أن كل ما ذكرته من تفهم يمكن إدراجه تحت الرأي الذي أؤمن به شخصياً من الفصل بين المجموعات، تفسير ذلك يطول لكن يجب المرور عليه لأن القارئ النبيه قد يدرك ذلك ويظن أنه فاتني. الأمر الآخر هو وجوب حل المسألة، ربما اقتنع القارئ بأن إغلاق باب التفهم ضروري لكن شيئاً في نفسه أخبره بأنه لا يجب أن يعادي أولئك الثوار، بالطبع الحل هنا هو واضح، الحل هو في الوحدة الحقيقية لا المزيفة، وهو أحد المبادئ التي أحاول الحفاظ عليها، نعم حتى أولئك الفرحين مع الكيان، والفينيقيين والذباب السعودي والسحيجة الأردنيين، لا داعي لمعاداة أيٍ منهم معاداةً وجودية، بل إن هذا منطق المحور لو تواضع هؤلاء وسمعوا لقيادات المحور مباشرة دون فلاتر نفطية، كل هؤلاء ليسوا المشكلة الأساسية ولا حتى الثانوية بالنسبة لنا، على الأقل وفقاً للنظرة السائدة عند الفلسطينيين ما زلنا نرتبط بكل هؤلاء بطريقة أو بأخرى. الحل إذاً هو في التوحد، ولذلك يكون رفض هذا التفهم للفرح مع الكيان شرطاً مسبقاً للوحدة، فكيف لنا أن نجتمع مع أصدقاء العدو المركزي والوجودي؟ وكيف لأي خلاف ثانوي أن يأخذ محل الخلاف الأساسي؟

أربعة وجوه للقلق العسكري

هذه الأفكار التي تنتقد حزب الله خصوصاً والمحور عموماً ويدور نقدها حول فكرة أن ما يبذله الحزب والمحور ليس كافياً قد تنطلق من ٤ منطلقات، هذه المنطلقات أيضاً قد تساهم في رفد الفكرة القاتلة المتفهمة للراقصين مع الصهاينة. الفصل بين المنطلقات ضروري وأي محاولة لرفع النقد إلى مستوى الموضوعية والاكتفاء به لا تصح في حرب مصيرية كهذه، لذلك بعد المرور على النقد للفكر موضوعياً يجب أن نتجه إلى خلفية النقاشات هذه.

لنبدأ بالمثال الأبعد والأسهل كشف زيف موضوعيته المزعومة بالحديث عن المنطلق المعادي كلياً لنهوج المقاومة، لو كان أحدهم يرفض فكرة المقاومة المسلحة بالأصل فهو يرفض الطوفان بذاته، ولن يعجبه أي جهد مبذول على نفس المسار المسلح. عندما نتأكد من أن فرداً ما يتجه بمواقفه من هذا المنطلق يسهل علينا، وأخصّ بكلمة "نحن" المؤمنين بالخيار المسلح ضد الكيان، يسهل علينا إدراك رفضه الجذري والتعامل مع كلامه كأنها انتقادات من معسكر معادي. ولا غرابة من تقاطع كلام هؤلاء مع كلام الأعداء. هذا لا يعني أننا نستطيع تجاهلها، يجب دحضها لكنه دحض جمعي ويأتي في صيغة العداء، طبيعة الرد عليها ستكون بقسوة واحتمالية تقبلنا لها في الحضيض. هل هذا يعني أنها خاطئة مطلقاً؟ تعود إجابة هذا السؤال لأفكارك حول مسألة الموضوعية ومسألة تقديرك لحجم الخطر لذا اكتفي بهذا الحد من التعليق على هذا المنطلق.

المنطلق الثاني هو المنطلق الطائفي و/أو العنصري، هذا المنطلق قد يتناسق أكثر بقليل مع الوقوف في معسكر المقاومة، الكثيرون يعتبرون الحرب القائمة حرباً دينية والكثيرون منهم هم من السنة، ومن المنطقي والمثبت وجود الطائفيين والعنصريين الذين يناصرون المقاومة الفلسطينية فقط لأنها تنتمي لطائفتهم أو لمجموعة عناصرهم (العرب أو الفلسطينيين). بالنسبة لهذا المنطلق فقد خصصت القسم السابق لتوضيح بطلانه وارتداده على أحبتهم من المقاومين السنة/العرب/الفلسطينيين، أي أنك لو كنت صادقاً حتى في طائفيتك وعنصريتك عليك أن تحذر من الطعن في حلفاء جماعتك بمعظم الصياغات. بالطبع لا تنتهي المسألة هنا، العنصريون والطائفيون من غير الفلسطينيين وجدوا ضالتهم العنصرية والطائفية في الوقوف مع الكيان ضد المحور، وبما أن هذه المقالة ليست مخصصةً لمخاطبة هؤلاء اكتفي بتذكير الفلسطيني، حتى لو كان طائفياً وعنصرياً، بأن هؤلاء لم يقدموا ظفراً من أجلك، وأنهم سوف يقصونك من دائرتهم في اللحظة التي تتجرأ فيها على وضع حياتك بعين الاعتبار، فأنت بالنسبة لهؤلاء أشبه لفكرة أو عنصر من المحاكاة ولست شخصاً حقيقياً، بالنسبة لبعض من هؤلاء قد تكون هزيمتك النكراء حجة مفيدة لهم، قد يسجد أحدهم سجدة شكرة كما سبق لبعضهم عندما نصر عدونا، بالنسبة لهم هناك مسائل خارج نطاق وجودك ودمك وهو معلق بنظرياتهم ونظرتهم للعالم وهم يفضلون أن ينتصر عدوك على أن تنجو من كل هذه العذابات. قد تستحق أنت الهزيمة لأنك وقفت مع "الرافضة" اليوم، لا يحاول الكثير منهم إخفاء هذه الرغبة على أي حال. والكلام ينطبق على العنصريين غير الطائفيين، لا داعي لأن تبحث مطولاً لتكتشف أن نفس الأشخاص الذين يتحاملون على لبنان وأهلها يتحاملون على الفلسطينيين، ولكنهم قد يخفوا هذا التحامل إما بمجاملة أهل غزة وأخذ ذلك سبيلاً للطعن في غيرهم من الفلسطينيين، أو حتى بإبراز وقاحتهم بتعليقاتهم على أي شخصٍ من غزة يذكرهم بقبح صنيع "عناصرهم". وهناك منحى آخر للعنصرين لا يظهر لأنهم لا يهاجمون الفلسطينيين مباشرة لكنهم يغضون الطرف عن أبناء جلدتهم عندما يفعلون ذلك، ويتحججون بالذباب وتجد بعضهم يترفع عن "الفتنة" لكن في اللحظة التي يأتي الرد فيها قاسياً من الفلسطيني لا يمانعون من الدخول في الفتنة نفسها.

المنطلق الثالث هو المنطلق الذي أظن أن الأغلبية قد تندرج تحته وهي تستحق الإقناع، ولا أنكر أن هذه المقالة تحاول بالدرجة الثانية إقناعهم حتى لو كان المخاطب الأول هو الفلسطيني المؤمن بالتحرير غايةً وبالسلاح سبيلاً. هذه المجموعة هي التي تكره المحور بسبب الحرب السورية، وبالأخص بسبب السيميولاكرا السورية والمحاكاة والسردية للثوار. هذه المجموعة قد تكره حزب الله دون أن تكره المقاومة المسلحة أو الشيعة أو اللبنانيين، قد تكره الحزب لأنها تنسب له الكثير من الجرائم في الحرب الأهلية السورية. محاولة إخراج الناس من هذه الأوهام يمثلها هذا المقطع من فيلم المصفوفة ببراعة فنية منقطعة النظير. بعيداً عن التصوير الفني فالمسألة أشبه بإعادة تأهيل لا يمكن تلخيصها بفقرة، لكن يمكن أن أعطي القارئ الذي يطعن في المقاومة اللبنانية من هذا المنطلق إشارتين للطريق التي يمكن أن يسلكها بنفسه دون أن أمسك بيده.

الخطوة الأولى قد أخذها بالفعل، وهي خطوة الفصل بين أطراف المحور، فهو يظن أنه يستطيع فك الارتباط بين المقاومة الفلسطينية واللبنانية، ما المانع نظرياً من فك الارتباط بين المقاومة اللبنانية وحليفها السوري؟ هذه الخطوة ليست أفضل الخطوات لكن على الأقل من الأسهل على القارئ أن يسلك نفس المسار الذي بدأ بالسير فيه لتفادي التنافر الحاصل بسبب تصادم محاكاة الحرب السورية مع الواقع. المطلوب هو أن يبني منطقياً على رأيه القائل بأن المقاومة الفلسطينية ليست مسؤولةً عن أخلاقيات حلفائها، فإذا صح هذا لماذا يمنع هذا الحق عن المقاومة اللبنانية؟ الإشارة الثانية هي لإبعاده عن الدور الذي يعيده إلى المنطلق، وهو الدور المتمثل بتحميل المقاومة اللبنانية وزر كل الجرائم في الحرب السورية، هذه الحرب لا تخلو من الفظاعات والتجاوزات الأخلاقية، لكن النظرة المجهرية لهذه الفظاعات ترفع الكثير من الأوزار عن حزب الله بنفسه.

أبسط حقيقة تصطدم مع محاولة تحميل الحزب الجرائم المنسوبة لغيره هي حقيقة أن كل ما يمكن اعتباره جرائم حرب بسبب الطيران الحربي لا يمكن إسقاطها على الحزب، ثاني حقيقة هي أن الحزب حتى في تدخله في تلك الحرب لم يكن سوى جزء من حرب معقدة متعددة الأطراف، أي أنه لعب دوراً في إسناد حليفه لكن محاولة اختزال الحرب وتصويرها كأنها حرب بين الثوار والحزب هي محاولة باطلة. الأهم من كل هذا، أذكّر أصحاب هذا المنطلق بأن سردية الثوار قامت على أن المحور "يستغل" القضية أو "يتاجر" بالقضية، ولكن الواقع الآن يبرئ الحزب من هذه التهمة، وهو بريء بالأصل لأي شخص لا يعيش في تلك المحاكاة، لكنني أخاطب أصحابها هنا، أدعوهم إلى قراءة تاريخ الحزب قبل الحرب السورية وعلاقته بالقضية الفلسطينية. وإذا كانت المهمة مرهقة للأميين، يكفي الإشارة إلى أننا لو أخذنا الطرفين في الحرب السورية، الحكومة السورية ومن معها مقابل الثوار ومن معهم، ونظرنا إلى التهم التي أطلقها كلاهما على الآخر، فقد تبرأت الحكومة من زعم المتاجرة فهي لم تكسب شيئاً من هذه التجارة، وتتعرض للقصف والاغتيالات وإن لم يكن هذا دليلٌ على العداء فلا يوجد أي دليل مقنع أكثر من هذا.

مع التنبيه إلى أن عدم الرد لا يتعارض مع فكرة العداء، بل تعود المسألة إلى القسم السابق عن الطعن في المحور والذي قد يتحول إلى طعنٍ في المقاومة الفلسطينية، فقد ارتكب الكيان كل أنواع المجازر في غزة، ولم تكن بسالة المقاومة الفلسطينية كافية "لردعه" ولا يدل استمرار الكيان بإجرامه على أن المقاومة الفلسطينية قصّرت في أدائها بقدر ما يدل على الظلم العالمي في ميزان القوى، وهو ظلم نجد مثيلاً له في معظم أو كل قضايا التحرر واسترجاع الحقوق. بالطبع لا يمكن المساواة بين المقاومة الفلسطينية التي تبذل الغالي والنفيس لمواجهة الكيان والحكومة السورية التي لا ترد بتاتاً، لكن هذا موضوع لا ينفي العداوة، مما يعني أن سردية الحكومة السورية لا تنفيها أحداث الحرب هذه بل تثبتها أكثر وأكثر.

لنأخذ التهمة المقابلة، وهي التهمة التي يلقيها المحور على الثوار وعلى الثورة بأنها كانت من البداية أو صارت في مرحلة ما ثورة صهيونية، يبدو أن الثوار السوريين لا يكترثون كثيراً بتفنيد هذه الحجة، فها هم يرقصون مع الصهاينة ويفرحون لفرحهم، وفي الكثير من الأحيان يألمون لألم الكيان. كما أنهم فجأةً أخذوا الخصومة إلى مستويات فجور مشينة، وصار بعضهم يفرح عندما يعتدي الكيان على اليمنيين. هؤلاء لا يكترثون بنفي التهمة بتاتاً، ولو كنت تتحدث من المنطلق الثالث وخصوصاً لو كنت فلسطينياً، عاين مواقفهم وخطابهم الموجه لك ولإخوتك الفلسطينيين، وشتائمهم لرموزك وشهدائك، مع العلم بأنك أنت والمقاومة الفلسطينية في غزة عموماً لم تقاتلهم بأي صورة، وأن كل هذا الحنق والفجور ينبع من خصومتهم التي جعلوها أولوية وجعلوا قضيتك خصماً بالمعية.

أصحاب هذا المنطلق عليهم أن يتذكروا أيضاً أنهم هم أنفسهم -أو أن يتنبهوا إلى أن قادة الرأي لهذا المنطلق- كانوا ينتقصون من القضية الفلسطينية ومن مسار التحرير كله فقط خدمةً لمشروع الثورة، وهذا لا يمكن أن يحصل لو كانت هذه الثورة متناسقة مع الهدف الفلسطيني بإعادة حقه. كم سمعنا مقولات مثل "المبادئ لا تتجزأ" و"الدم الفلسطيني ليس أغلى من الدم السوري" و"لو حرر حزب الله فلسطين لن أكفّ عن معاداته"، كيف لفلسطيني أن يتفوه بالجملة الأخيرة البارحة ويأتي اليوم لينتقد الحزب وأن يتوقع منا أن نتعاطى مع نقده كأنه نقد موضوعي نظري سليم يستحق الأخذ بعين الاعتبار؟ أما المقولات الثانية وكل شيء على غرارها فهو أشبه بكلام حق يراد به باطل، لكن سردية المحور لا تقوله بتاتاً، واليوم أكثر من البارحة يثبت المحور أنه لا يستحقر دم الفلسطيني، فالمحور مستعد لأن يقدم دمه قرباناً على مسلخ التحرير، ومن المخزي أن يرى الفلسطيني الدماء تنزف وتختلط بدمائه ثم يحاول أن يتكبر على أصحاب هذه الدماء. ولذلك أعود وأكرر بأن محاولة التداول في بورصة الدم التي فتحها الربيع العربي هو من شيم أصحاب الفتنة لا الوحدة، وأن الفلسطيني إذا أصرَّ

على التفرقة عليه أن يتقبل موضعه الآن وهو يذبح وحيداً كما يزعم أصحاب هذا المنطلق الذين يرفضون رؤية تضحيات غيرهم. ومن الواضح من أصحاب هذا المنطلق أنهم يرغبون بالوصول إلى هذه النهاية العدمية والولولة فقط.

قبل الانتقال للمنطلق الأخير أعيد التركيز على الأداة القياسية الأهم لأصحاب هذا المنطلق، عليهم أن يفكروا ملياً بطبيعة التحالفات وباصطدام مشروع ثوار إدلب مش مشروع التحرير الفلسطيني، ولماذا يجد الفلسطيني نفسه يتفهّم مشاريعاً تصطدم مع مشروعه وكيف له أن يدّعي أن تناسقاً في منطقه دون أن ينتقص من قضيته ليخدم قضية غيره؟ الأداة هي المجهر التي يُمَكنّك من معاينة الشرخ في المحاكاة التي نجح الثوار من خلقها بالاستعانة مع آلات الإعلام الثقيلة، لكنهم ربما لم يتنبهوا إلى أن تلك الآلات كانت تستغلهم وأن المزيد من الناس يستيقظون إلى الواقع المرير، بينما تحاول نفس الآلات صناعة محاكاة أخرى.

المنطلق الرابع والأخير هو الأحق بالإقناع وهو الأكثر أخلاقية، لكنه للأسف عندما يطعن بجبهات الإسناد يحيد عن الأخلاق وسط الطريق. وهو منطلق الشعور بالقهر والنبذ الذي يعم الشعب الفلسطيني كله وخصوصاً الفلسطيني المؤمن بالتحرير، حتى أولئك الذين لا يؤمنون بالسلاح مسبقاً أو من كفروا به وها هم اليوم يسارعون لإعلان الهزيمة وتشريح المعركة كأنما انتهت. نعم، عشرات الآلاف وربما مئات الآلاف من الشهداء ومعاناة مليونية وحرب إبادة فظيعة تحصل على مرأى ومسمع العالم تشعرنا بأننا فعلاً لوحدنا، كيف لنا أن نعيش كل هذا الظلم سواء مباشرة في غزة أو بامتدادها في كل العالم، وكيف لنا أن نرى العالم يسير بينما تقتضي كل النماذج الأخلاقية التي نؤمن بها بأن العالم عليه أن يتوقف حتى يوقف هذه الإبادة، كيف لنا أن نرى كل هذا دون أن تملأ قلوبنا النقمة على العالم أجمع؟ كيف نرى مقطعاً لأشلاء أطفالنا وبعده مقطعاً لعربيٍ يضع صورة لمنتج كي يستفزنا ويعلن عن أن تلك الأشلاء لا تعني شيئاً له؟ كل يوم على مدى سنة كفيل بأن يطفح قلوبنا بالقهر والحقد على العالم الذي يسمح لهذا الظلم بالوقوع علينا. لكن هذا الحقد كله مصدره ومركزه هو الكيان، حتى لو أردنا توزيع الجرم على من دعمه وحالفه وهادنه، كل هؤلاء لولا الكيان لما ارتكبوا هذه الفظاعات بنا لأنها ليست حربهم المباشرة، من الواضح أن لدى كل منهم نزاعات وحروب يستعدون لبذل الكثير من أجلها لكن دمنا في نظرهم لا يستحق التضحية.

حتى لو وزعنا المسؤولية الأخلاقية على هؤلاء فهل من المعقول أن تطال المسؤولية أولئك في المحور الذين أقدموا على التضحية مباشرة بعد الطوفان بيوم دون حسابات وودون تردد وقدموا أثمن ما يملكون من أجل إيقاف الحرب؟ هل يعقل أن نكتب المقالات ونكرر العبارات التي تنتقص من رفاق طريق التحرير القاسية مع وجود قائمة طويلة من المتخاذلين والخونة الذين يزيدون من قسوة الطريق؟ إذا كنت مقهوراً لأن الضحايا في غزة يتعرضون لكل أنواع العذاب ولأن الشعب الفلسطيني أينما كان فهو عرضة لامتدادات هذا العذاب، فهل يعقل أن يكون اللوم على أعداء عدوك المركزي؟ هذا العدو المركزي الذي تلاحقك أذرعه في كل مكان؟ هذا العدو الذي يتطفل على كل الدول والبنوك والثقافات ليجعلك في نظر الجميع عدواً أو مخرباً أو لينزع الإنسانية منك ويزرع فيهم حب تلك المنتجات يفوق اعتبارهم لقيمة روحك وقضيتك؟ هل هذا العدو الذي ارتكب كل الفظاعات بشعبنا عقلاني يمكن تفهمه ولوم أنفسنا ومن معنا على فظاعاته؟ فإن لم تكن أي من فظاعاته مبررة بحقنا، لماذا نجد تبريراً لها في أي مكان؟ هل هذا هو التصريف الصحي للحقد والنقمة والشعور بالقهر والخذلان؟ أليس من الأولى أن تتوجه كل أسلحتنا نحو هذا العدو؟ اليوم وقد كشف عن قباحته التي وحدت كل النفوس السوية في العالم على قضية واحدة وهذا ما لم يحصل في أي وقتٍ في التاريخ البشري، هل في يومٍ كهذا نجد الوقت لنتكبّر على أشرف الأحرار ورفاق السلاح؟ ألا يحق لنا اليوم بأن نصبح منارة للوحدة الأخلاقية؟ لا أدعو إلى الوحدة في مجموعات وهمية ولا إلى أن نرمي بجثث شعبنا في تغذية المجموعات القائمة التي لم تتحرك عسكرياً لأجلنا وأشبعتنا بالشعارات.

الوحدة المطلقة ضرب من الخيال، الشعب الفلسطيني ذاته ليس واحداً، وحتى لو التسمنا عذر الاستعمار وكيف يمسخ النفوس ويهزم العزائم ويوظّف الوكلاء، في حربٍ صفريةٍ كهذه وبحق الاسم النبوي للعملية العسكرية التي أشعلت هذه الحرب، عملية الطوفان، أليس من الأجدر بنا أن نستغل هذا الحقد كله لنفكك كل مجموعة ونموذج فكري وأخلاقي خذلونا وأن نوطد العلاقات في المجموعة الوليدة الجديدة وأن نكون طليعة الأخلاق التحررية؟ وهل هناك وقت أحسن من هذا الوقت عندما تتصدر المشهد جماعات إسلامية؟ ألم يحن الوقت لأن ندعو الجميع لتخطي الفتن حتى تتغربل الصفوف ويتضح أخيراً من يستحق الحقد والنقمة ومن يستحق الوفاء والولاء؟ وكيف لكل هذا أن يحصل لو هدرنا جهدنا وأوقاتنا في نقاشات فتنوية تفكك الروابط الجديدة القديمة؟ ولو سلّمنا بالهزيمة المرحلية والولولة والبكائيات، فهذا يعني أن المقاومة الإسلامية، بشقيها الفلسطيني واللبناني، قد هزمت وقد حان الوقت للتوجه إلى فكر أيدولوجي وأخلاقي غير إسلامي. أهذا حقاً ما يطلبه منا العدميون؟

الردع والردم

كي تحيط المقالة بأكبر قدر ممكن بالموضوع يجب أن أذكر نقطتين مهمتين عن كل النقاشات المرتبطة بالردع والتي تسارع في إعلان الهزيمة وترميم صورة الكيان بعد أن حطمتها غزة تحطيماً مبرماً. الردع في معظم النقاشات كما حاولت أن أوضّح في هذه المقالة هو إشارة، لكنه ليس إشارة إلى واقع الحرب ومجرياتها وإنما إلى سردية ومحاكاة قيد الخلق، وعلى أي مؤمن بالمقاومة وبأهمية الطوفان الإسراع في إيقاف هذه المحاولة لترميم صورة الكيان.

يجب أن أوضح أيضاً إلى سبب وضع مثل هذا الملحق في هذه السلسلة، إذ أن كل أحاديث الردع تنم أكثر عن مشاعر المتحدث من دلالاتها الواقعية، مطلب التصعيد يصدر من المقهور المتعطش للعدل برؤية البطش بالكيان لا منه، كما يصدر من المتعطشين لدماء المحور الذين يفرحون جهراً أو بالسر عندما يوجّه الكيان ضرباته للمحور، في الحالتين يبتعد المتحدث عن الكثير من الوقائع ويكمل مسيرة الربيع في تجاهل كل شيء يقوله المستضعفون ويتمسك بالمحاكاة المهيمنة، لذلك بدلاً من قياس الأمور بالأهداف المعلنة للحزب يدخل المتحدثون مقاييسهم، سواء ذلك المقياس المبهم والخبيث عن الردع أو المقياس المطلق والأخلاقي عن وقف الإبادة، ثم يستنكرون على الحزب عدم امتثاله لمقاييسهم.

لذلك بعد قراءة مقالة كهذه أدعوك إلى أن تلاحظ المنطلقات المختلفة، وأن تلاحظ أنها لا تستثني بعضها، هناك تقاطع واضح قد تجد فيه شخصاً يملك المنطلقات الأربعة، لهذا لا تظن بعد الآن أنك عندما تقرأ تحليلاً يشير إلى الردع بالحجج المذكورة مهما تظاهر بالموضوعية كما لو أنه تحليل يستحق التعاطي على المستوى الأول من النقاشات والأفكار، أغلب الظن وجود خلفية هي التي تتحدث فعلاً، وأن كل حوار الردع اليوم حتى لو انتهى دون إنهاء التناقضات في الخلفية سيتبعه حوار شبيه غداً، وكلاهما امتداد للحوار الساقط في المحاكاة التي تعكس نفسها كمحاكاة وتجعل المتفرج يظن أنه يشاهد "المسرحيات" بين المحور والكيان. كل هذا الهراء ما هو سوى واجهة للخلفية الفكرية التي تحمل أحد أو كل تلك المنطلقات. ولهذا لا يمكن أن ينحسم النقاش دون التطرق للمنطلقات أو التنبّه لها وإذا تعلق الشخص بمقياس الردع فقد يخيب ظنه لأنه اتبع هواه.

كل هذا لا يعني أن مفهوم الردع ساقط ولا يمكن تطبيقه أو أن المحور معصوم وفي أهبة الاستعداد لحرب شاملة، لكن المسألة هي إسناد القضية الفلسطينية التي تشرّف المنتسبين لها وهم يشرفونها. وقد اختلف الحلفاء مع الزمان، لكن العدل في جوهرها ما زال قائماً وقادراً بعد مرور ما يقارب القرن على بدء المأساة الفلسطينية أن يصبح منارة عالمية. فما رأيك بحزبٍ حتى في أكثر تحركاته المثيرة للجدل لم يصطف ضد القضية؟ هذا الحزب كان وفياً للقضية أكثر من بعض أبنائها، ولم يبدّل بينما بدّلت أحد أكبر الحركات الفلسطينية، هذا الحزب شريك مباشر في إبقاء شعلة الحق على المنارة الفلسطينية مشعة جامعة موحدة.

لذلك من باب الوفاء للقضية، وليس من باب الانبطاح أو التبعية كما يصفه البعض الذي يسقط على الفلسطيني حماقات غيره، من باب الوفاء يجب على الفلسطيني أن يقدّر الحزب في كل حالاته، وهو يقصف حيفا وعندما يقصف الكيان الضاحية، واليوم أكثر من أي يومٍ مضى علينا أن نشهر احترامنا للحزب، وعندما نشهد أي محاولة للطعن فيه فعلى الفلسطيني الوفي المؤمن بالتحرير غايةً وبالسلاح سبيلاً أن ينظر إلى تلك الطعنات بعين الشك لا بعين الاعتبار.

علينا أن نسارع في ردع تهمة تآكل الردع الباطلة، علينا أن نردع أي محاولة لردم الحفرة السحيقة في صورة الكيان الذي يعتمد على الصور والخداع، نحن لا نعيش في فترة انتهاء القضية بل في أحد نقاط ذروتها، اليوم لدينا الأفضلية التاريخية، فنحن نملك سوابقاً تؤكد لنا أن هذا الكيان عند مواجهة المقاوم الفلسطيني أو اللبناني لا نجد منه سوى المهزلة والرداءة. وأن كل نجاحاته هي في الإرهاب، وإذا بتنا نلوم الضحايا تحت أي مسمى على الإرهاب بحقهم فنحن والكيان سواء. اليوم نحن نملك الأفضلية الإعلامية والشرعية، واليوم بسبب المقاومة الفلسطينية في غزة وفي جنوب لبنان وفي اليمن وسوريا وإيران ننتقل إلى المرحلة الجديدة من الصراع مؤكدين ومتأكدين من ضرورة التحرر المطلق، وندرك أن هذه الحرب مهما طالت فإن الوقت لصالحنا لو لم نترك المبادئ كما فعل لقطاء دايتون. كما على أي حر يؤمن بيقين أن التحرير قادم، عليه ألا يعتبر أي مرحلة دون التحرير مرحلةً نهائية، لقد كان الكيان في غزة وخرج منها وعاد إليها وسيخرج مجدداً، وقد كان في جنوب لبنان وخرج وربما يعود، كل هذا جزء من حرب طويلة ومد وجرز ثوري، الكيان كله لم يكن موجوداً ثم جاء ونهايته أن يعود إلى طي الفراغ.

المقاومة لا تسعى إلى الردع كما تفعل القوى العظمى، القوى العظمى تحتاج إلى الردع للحفاظ على مكتسباتها، أما المقاومة فلا مكسب لها دون التحرير. وفي اللحظة التي نرمي بتضحياتنا وتضحيات شهدائنا جانباً نحوّل آخر مرحلة وصلنا إليها إلى نهاية القضية. هل هذا يعني أنها ستموت معنا؟ كلا، هذا يعني أن مجموعة وليدة سينجبها الشعب لتطردنا كما طرد مرتزقة التنسيق الأمني.

الخذلان والخيانة من الجماعات المتوهمة هما ما صعّبا مهامنا لكننا اليوم أصبحنا أقرب من إدراك حجم الخيانات، كما أن الخيانة والخذلان من البعض ليس جديداً، لقد ألقت بنا خيانة الأشقاء العرب والأمة الإسلامية مسبقاً في الخيام، وبعد ثمانين عام جاءت عملية مثل الطوفان لتجدد أملنا. حتى لو طال الصراع سنعود بعد ثمانين عام بما هو أعظم. لكن لا داعي لإطالة النزاع أكثر من اللازم، وكي نقصّر من عمر الصراع الذي نملك يقيناً بانتهائه لصالحنا، علينا أن نتعلم من الخبرات كلها، من خبراتنا، ومن سقطات بعض حركاتنا، ومن نجاحات حلفائنا، ومن نجاح خير رجالنا.